القسم الأول

الباب الأول

فتح المغرب والأندلس

(21 -95 هـ/ 642 -714 م)

1

الفصل الأول

فتح المغرب

(642 -714 هـ / 642 -714 م)

قادة الفتح :

1. عمرو بن العاص *21-24* هـ
2. عبد الله بن أبي سرح *25-28* هـ
3. معاوية بن حديج *45-50* هـ
4. عقبة بن نافع *50-55* هـ
5. أبو المهاجر دينار *55-62* هـ
6. عقبة بن نافع (ثانية) *62-64* هـ
7. زهير بن قيس *64-69* هـ
8. حسان بن النعمان *73-85* هـ
9. موسي بن نصير *85-95* هـ

اختلف المؤرخون والجغرافيون المسلمون في تحديد مدلول المغرب «شمالي أفريقيا»، إلا أن جمهرتهم اتفقوا على تحديده بالأراضي الإسلامية الممتدة غرب مصر إلى المحيط الأطلسي، وعلي هذا الأساس كانت الاسكندرية هي الحد الفاصل بين المشرق. فالمغرب إذن هو المنطقة التي يحدها شمالا البحر المتوسط، وغربا المحيط الأطلسي، وجنوبا الصحراء الكبري الممتدة من المحيط مارة بجنوب سجلماسة وحتى زويلة. أما من الشرق فقد اختلف الجغرافيون في تحديد حده، فيري البعض أن برقة وطرابلس ليستا من المغرب إنما تابعة لمصر، ويرى فريق آخر أن برقة وحدها هي الخارجة عن حدوده أما طرابس فهي داخلة فيه. وهذا ما يطابق الواقع لأن برقة كانت دائما تابعة لحاكم مصر قبل الفتح العربي، وظلت كذلك بعده إلا في سنوات قليلة، على العكس من طرابلس التي ظلت دوما تابعة لحاكم إفريقية، فيما عدا بعض السنوات القليلة التي خضعت فيها لخليفة مصر الفاطمي.

وتؤلف بلاد المغرب وحدة جغرافية وإثنولوجية مستقلة عن بقية القارة، وهذا الارتباط الجغرافي والإثنولوجي يرجع إلى الصحراء الكبرى التي فصلت الشمال الإفريقي عن بقية القارة، وإلي امتداد جبال الأطلس في قلب المغرب من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق. وجبال أطلس هذه تمتد في سلسلتين إحداهما الشمالية، وهي تتفرع بدورها إلى فرعين يمتد أحدهما ـ وهو ما يعرف بجبال الريف ـ بحذاء ساحل العدوة متخذا شكل قوس يحتضن الساحل الشمالي من سبتة إلى مليلة، تاركا سهلا ساحليا ضيقا في هذه المنطقة، أما الفرع الآخر المعروف بأطلس التل فيمتد من المحيط الأطلسي شمال وادي سوس نحو الشمال الشرقي حتى إفريقية، وهي جبال عالية الارتفاع شديدة الانحدار في جانبيها الشمالي والجنوبي وبخاصة في قسمها الغربي من المغرب الأوسط، أما الجزء الشرقي فأقل ارتفاعا وبه ممرات أكثر. والسلسلة الثانية هي الجنوبية وتعرف بجبال أطلس الكبرى، فتمتد في جوف الصحراء جنوب وادي سوس في موازاة جبال أطلس التل وتنتهي في جنوبي إفريقية أيضا، وهي أكثر جبال الأطلس ارتفاعا ولا توجد بها ممرات تيسر الاتصال بين المغرب الأقصى والمغربين الأوسط والأدنى، سوى ممر تازة الذي يعتبر المدخل الوحيد إلى المغرب الأقصى، فكان لهذه المجموعة الجبلية أثر كبير في العزلة التي فرضت على المغرب الأقصى، الذي يقع فيه إلى الجنوب من جبال أطلس الصحراء سلسلة جبلية صغيرة تعرف بجبال درن.

وبين هاتين السلسلتين الجبليتين هضاب متصلة يقع معظمها في المغرب الأوسط بعضها أكثر ارتفاعاً من الأخرى، وهي التي تقع في الجنوب الغربي من هذه المنطقة، كما توجد مجموعة من السهول يقع معظمها على ساحلي المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، وهذه السهول يقل اتساعها كلما اتجهنا شرقا حتى يضمحل عرضها ويضيق في إفريقية لاقتراب

الجبال من الساحل في هذه المنطقة، كما توجد مجموعة أخري من السهول والوديان حول مجاري الأنهار وأهمها سهل وادي سبو والمنطقة المحيطة بمدينتي فاس ومكناس في المغرب الأقصى، وسهل وادي شليف في المغرب الأوسط، وبلاد قسطيلية أو الجريد في جنوب إفريقية. هذا إلى جانب مجموعة من الواحات مثل التي تقع جنوبي إقليم طرابلس في منطقتي ودان وفزان.

وكان لطبيعة بلاد المغرب الجغرافية أثرها الواضح على تشكيل تاريخها، فكان اتجاه سلاسل الجبال في صفوف موازية للساحل سببا في يسر سبل المواصلات بين شرق البلاد وغربها حتى شرق المغرب الأقصي، وفي نفس الوقت كانت حجر عثرة أمام التأثيرات الأوربية إلى داخل البلاد، كما كانت غلبة الطابع الجبلي سببا في قلة المراكز العمرانية والحضارية وكذلك في صعوبة الاتصال فيما بين هذه المراكز.

وكما كان لجغرافية البلاد أثرها على الحضارة فإنها طبعت غالبية السكان بطابع البداوة من خشونة وشجاعة وحب للقتال، وجلد وقدرة على الاحتمال والاكتفاء بالضروري من الغذاء ونحولة الأجسام، كما أكسبتهم حب الحرية وحدة الخلق والعناد. وقد لعبت هذه الطبيعة الوعرة دورها مع السكان في مقاومة الغزاة وفي ثوراتهم على حكام بلادهم، إذ وجدوا في الجبال ومرتقاها الصعب حصنا يصعب على الفاتحين الوصول إليه. وكان لطبيعة البلاد أيضا أثرها على نظامهم السياسي وطبيعة حياتهم، فكان النظام القبلي طبيعتهم ورعي الماشية والخيل والأغنام والإبل حرفتهم الأساسية ووسيلة معيشتهم. ولكل هذه الأسباب استمر فتح العرب للمغرب سنين عدداً وتم بعد محاولات مضنية، تعرض فيها العرب لمقاومة لم يشهدوا لها نظيرا في كل فتوحاتهم، وحتى بعد إتمام الفتح لم يعرف العرب للراحة طعما، إذ أضني السكان العرب بالثورات كلما شعروا بظلم وإجحاف.

وقد كانت بلاد شمالي أفريقيا منذ بداية الحكم الروماني مقسمة إلى أربعة أقسام: هي إفريقية وعاصمتها قرطاجنة، ونوميديا وعاصمتها قسنطينة، وموريتانيا القيصرية وعاصمتها شرشال، وموريتانيا الطنجية وعاصمتها طنجة. ولكن الجغرافيين والمؤرخين المسلمين درجوا على تقسيم المغرب إلى ثلاثة أقسام وهي المغرب الأدنى «إفريقية» والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وقد أخذت هذه الأقسام أسماءها من قربها أو بعدها عن مصر التي كانت مركزا للفتوح العربية لبلاد المغرب حتى تم فتحه. والمغرب الأدنى أو إفريقية يمتد من الحدود الغربية لولاية برقة شرقا إلى بجاية غربا، وهي بلاد خصبة تعتمد أساسا على مياه الأمطار في الزراعة، وكل مزروعاتها الزيتون والفاكهة والحبوب، والمغرب الأوسط يلي إفريقية غربا ويمتد حتى مدينة وهران، وهو كثير الهضاب وبه وادي شليف ويعمل سكانه بالرعي والزراعة. وثالث

جغرافية بلاد المغرب

الأقسام هو المغرب الأقصى الذي يلي المغرب الأوسط حتى ساحل المحيط غربا وسجلماسة وما في سمتها جنوبا، وبه قليل من الهضاب المرتفعة في الجزء الشرقي منه وبه السهول الخصبة أيضاً، واعتماد سكانه على الرعي والزراعة إلى جانب التجارة التي كانت سببا أساسيا في ثراء أهله، وبخاصة مدينة سجلماسة التي تحكمت في تجارة الذهب مع بلاد السودان.

وكان سكان المغرب عند الفتح العربي للبلاد يتألفون من طوائف ثلاثة: الروم وهم الحاكمون وجندهم والمقيمون في ظل سيادة الإمبراطورية البيزنطية، والأفارقة وهم بقايا شعب قرطاجنة وغيرهم من الذين استعمروا بلاد المغرب على طول تاريخه واستقروا فيه واتخذوه وطنا، وبعض الوطنيين الذين تأثروا بالحضارة الرومانية، ودانوا بالطاعة للسادة الحاكمين وعملوا لهم مأجورين بالزراعة والصناعة، أو كانوا للغالبين على بلادهم مصالحين على مال يؤدونه، وهاتان الطائفتان اتخذت من منطقة ساحل البحر المتوسط مستقرا ومقاما، وبعضها توزع في مدن المغرب ومراكزه الحضارية. أما الطائفة الثالثة وهم سواد سكان المغرب وأصحاب البلاد الأصليين، فهم من عرفهم العرب مع الفتح باسم البربر، وكل ما وصل إليه علماء دراسة الإنسان *Anthropology* عن أصل هؤلاء مجرد فرضيات واحتمالات رجحوا بعضها عن الآخر دون دليل مادي ملموس، فكان كل ما قالوه لا يعدو الحدس والتخمين، فالبعض قال بنزوحهم من الشمال « أوربا » وآخرون أوفدوهم من الشرق « آسيا » وفريق ثالث أتي بهم من الجنوب « أفريقيا »، وفريق جمع بين كل هذه الفرضيات فجعل أصولهم إلى سلالات مختلفة. أما المؤرخون المسلمون الذين كتبوا عن أصل البربر فقد تركوا الخيال والخرافات تسود في كتاباتهم، فكانت إلى الأسطورة أقرب من أن تكون تاريخا يعتد به.

أما عن تسميتهم بالبربر فقد سلك المؤرخون المسلمون مسلك الأسطورة في رواياتهم أيضا، فأرجعوها إلى ما قبل الفتح بقرون عديدة ونسبوها إلى لغتهم مرة وإلي اسم أبيهم أخري وإلي فراره إلى البراري ثالثة. وقال الحديثون أن هذا الاسم مشتق من الكلمة اللاتينية *Barbari* التي تعني الشعوب الهمجية والتي أطلقها الرومان على الوندال بسبب ما خربوه من العمران في الولايات الرومانية، فألصقت هذه الصفة برعايا الوندال من سكان الشمال الأفريقي، وهذا أيضا افتراض لا يجد ما يؤيده ولا يرقي إلى مصاف الحقيقة لصمت النصوص المعاصرة، والأمر المؤكد في ذلك أن العرب الفاتحين ليسوا هم الذين أطلقوا على سكان المغرب اسم البربر، وأنهم عرفوهم بهذا الاسم عند الفتح، أما التسمية القديمة لسكان شمالي أفريقيا فهي أمازيغ وهي كلمة تعني بلغتهم الرجل الحر الخشن.

والبربر جنس خشن غضوب، فرسان محاربون يصبرون على المكاره ويثبتون في الشدائد،

كما أنهم شديدو الغيرة على حريتهم، مما حدا بالبعض إلى أن يصفهم بالطيش والإسراع إلى الفتنة. وهم « أشبه العجم بالعرب لقاء وصبرا ونجدة وفروسية » كما وصفهم موسى بن نصير. وهذا الشبه وليد البيئة الجغرافية، فقد عرف العرب والبربر النظام القبلي وحركتهما العصبية القبلية حتى أنها صبغت تاريخها وعاش غالبية الشعبين حياة الظعن والبداوة، كما أكسبتهما الشجاعة وحب القتال، لذا كان البربر ندا للعرب فقاوموا الفتح في عناد حتى أن فتح المغرب اتسم بالصعوبة واستمر من السنين نحوا من سبعين عاما.

وكان البربر قبل أن يهتدوا بالإسلام في غالبهم عبدة أوثان لا يدينون بدين سماوي وإن كان القليل اعتنق اليهودية والبعض دان بالمسيحية، فأما اليهودية فقد جاءتهم على أيدي اليهود الذين خرجوا إلى المغرب كتجار ومرابين وبخاصة بعد تشتيت اليهود من فلسطين سنة 70م، وكان أكبر عدد لهم بالمغرب الأقصى. أما المسيحية فقد انتشرت في المغرب كولاية رومانية، ولما كانت سيطرة الرومان ومن خلفهم من وندال وبيزنطيين لم تتعد الشريط الساحلي والتحصينات العسكرية على المسالك الرئيسية في الداخل فإن انتشار المسيحية لم يتعد هذا الشريط الساحلي إلى داخل البلاد إلا قليلا. وقد ظلت قبائل البربر على وثنيتها يؤمنون بقوي الطبيعة ويعبدون الشمس والقمر ويعتقدون في الخرافات والسحر والكهانة، شأنهم في ذلك شأن كل المجتمعات البدوية، فكانوا سهل الانقياد لمن يعرف كيفية استغلال هذا الضعف.

ولقد اتفق علماء الأنساب والمؤرخون على أن قبائل البربر تنقسم إلى شعبين كبيرين: شعب يقال لهم البتر وهم أبناء مادغيس الذي لقب بالأبتر، وآخر تعرف قبائله بالبرانس نسبة إلى أبيهم برنس، وقالوا أنهما أخوان لأب واحد ولا نعرف لهذا التقسيم أصلا ولم يقدم له المؤرخون المعاصرون تفسيرا، أما المحدثون فحاولوا إيجاد تعليل لهذا التقسيم فاختلفوا في الأسباب. إذ اعتقد البعض أن كلا من شعبي البربر يمثل موجة بشرية مختلفة إحداهما أهل البلاد الأصليين والأخرى وفدت عليهم فنازعتهم أرضهم واغتصبوا منهم بعضها، فكانت العداوة والبغضاء التي جلبت الصراع بينهما، ويري بعض آخر أنه تقليد للعرب الذين فطنوا إلى التشابه بينهم وبين البربر بعد الفتح فقسموهم إلى بتر وبرانس على غرار تقسيم العرب إلى قحطانية « يمنية » وعدنانية « قيسية ». ويري فريق من المستشرقين أن هذا التقسيم بني على أساس اجتماعي فالبتر بدو ظاعنون وراء الانتجاعات يشتغلون بالرعي ويقطعون الطريق ويغيرون على مواطن المستقرين، أما البرانس فهم أولئك الذين يعيشون في السهول والمناطق الخصبة حياة استقرار ويعملون بالزراعة ويعانون من إغارة البتر، فكان الدفاع عما ملكت الأيدي والحرب بين القسمين. ويري فريق آخر من المستشرقين أن زي كل فريق سبب تسميته فمن يلبسون على رءوسهم برنسا غلب عليهم اسمه أما عراة الرأس فكانوا بترا. ولكنها

تفسيرات قائمة على غير أصول تاريخية مما حدا بالبعض إلى أن يقول بغموض أصل هذا التقسيم، وإن كان أرجحها وأقربها إلى الواقع هو بداوة غالبية البتر واستقرار معظم البرانس وعملهم بالزراعة، وإن كانت بعض قبائل البتر أهل زراعة واستقرار وحضارة مثل جراوة الزناتية التي كانت علاقاتها بالروم قوية، وكانت بعض قبائل البرانس أكثر توحشا وتبديا من قبائل البتر مثل صنهاجة اللثام «الجنوب ».

وإن لم نصل إلى رأي قاطع لأصل هذا التقسيم لصمت المصادر المعاصرة، فإن الحقيقة الوحيدة هي تعارف المؤرخين على هذا التقسيم وعلي الصراع الذي قام بين الطائفتين واتسم به تاريخ المغرب.

وقد انقسم البتر إلى قبائل عدة تفرعت بدورها إلى بطون كثيرة، وكذلك كان البرانس. حتى تداخلت بعض البطون مع بعضها البعض فاختلطت أنسابها، وظلت قبائل صراح لا يرقى الشك إلى نسبها مثل كتامة وصنهاجة وأوربة وعجيسة وهوارة من البرانس، وزناتة ولواتة ومكناسة ومغيلة من البتر. وقد كان الصراع طويلاً ومريرا بين البتر والبرانس، وبخاصة زناتة أكبر قبائل البتر عددا وأكثرها فرسانا وأشدها بداوة، وصنهاجة أكثر قبائل البرانس بطونا وأقواها شكيمة، حتي أن الكثير من المؤرخين صور تاريخ المغرب على أنه صراع دائم وثأر قائم بين البتر والبرانس، وفسر بقية أحداث تاريخ المغرب على ضوء الصراع بين البتر والبرانس أو البدو والحضر. كما استغل كثير من الغزاة والفاتحين لبلاد المغرب هذا النزاع لتوطيد نفوذهم في تلك البلاد.

وزناتة التي هي أهم قبائل البتر انقسمت إلى بطون عدة انتشرت في طول البلاد وعرضها، ولعبت في تاريخ المغرب دورا هاما على امتداد فترات العصور الوسطى، فجراوة أذاقت العرب الفاتحين الهزيمة وأوقفت تقدمهم سنينا. وبنو يفرن أودوا بحياة أشراف العرب وحماة فرسانهم وقلصوا ظل الخلافة عن المغربين الأوسط والأقصى وأقاموا إمارات بهما، ثم شاركت مغراوة الزنانية أشقاءها بني يفرن في الصراع ومساندة الدول المستقلة ثم السيادة عليها، ثم الوقوف في وجه الفاطميين وإقلاق راحتهم بالمغرب، وإقامة إمارات زناتية بالمغرب الأقصى، ثم ممالك في المغربين الأقصى والأوسط، وكذلك الدور الذي لعبته بطون هذه القبيلة في تاريخ الأندلس فرسانا محاربين مجاهدين أعداء الدين، أو مأجورين لملوك الطوائف المسلمين.

وقد كان لهذه القبيلة فنها الحربي الخاص بها في طريقة ركوب خيولهم وخفة حركتهم كرا وفرا. ونوعية دروعهم، واهتمامهم بتربية الخيل لعشقهم الفروسية، فكانت غالبية معاركهم مع الأسبان تكون الغلبة في جانبهم، مما كان سببا في اقتباس الأسبان الفن الحربي للزناتيين،

وأطلقوا اسم هذه القبيلة على بعض فرقهم العسكرية فأسموها *Zenetes*، ثم ما لبث أن غلب اسم زناتة على فروسية الأسبان أبد الدهر فأصبح الفارس في لغتهم يسمي *Jinete*.

ومن أهم قبائل البرانس كانت صنهاجة بفرعيها: صنهاجة الشمال التي كانت مضاربها في شمالي المغربين الأدنى والأوسط، وهي التي ساندت الفاطميين إبان وجودهم بالمغرب عندما كادت دولتهم أن تزول ويقضي عليها الزناتيون، ثم خلف زعماؤها الفاطميين في حكم المغرب نوابا عنهم بعد انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، فيما عرف بدولة بني زيري التي حكمت في إفريقية وبعض المغرب الأوسط، وصنهاجة اللثام التي عاشت بطونها في الصحراء الكبرى بين سجلماسة وبلاد السودان ضاربة وبالتجارة عاملة حتى منتصف القرن الخامس الهجري « الحادي عشر الميلادي »، ثم اجتمعوا حول دعوة دينية وأقاموا دولة عرفت بدولة المرابطين التي استولت على المغرب وعبرت المجاز فأخضعت الأندلس لحكمها نحو قرن من الزمان.

وتاريخ بلاد المغرب في الحقبة التي تبدأ مع الألف السادسة قبل الميلاد وتنتهي بالقرن السابع الميلادي، والتي شهدت فيها البلاد محتلين من فينقيين وإغريق ورومان ووندال وبيزنطيين ينزلون على سواحل البلاد ويستقرون، وفي بعض الأحيان يتغلغلون في داخل أراضيه في ثكنات للسيطرة على مسالك التجارة، هو تاريخ البلاد من وجهة نظر المحتل، وتحريا للحقيقة هو تاريخ الطبقة الحاكمة قبل أن يكون تاريخا للسكان الأصليين، فأصبح سكان البلاد موضوعا لمعرفة غير مباشرة.

ولقد بدأ تاريخ هذه المنطقة يدون كجزء من أحداث عالم البحر المتوسط حينما قام الصراع بين الإغريق والفينقيين من أجل السيطرة على حوض البحر المتوسط، فكان شاطئه الشمالي من نصيب الإغريق، والتفوق والسيادة على الشاطئ الجنوبي للفينقيين، ولم تكن غاية الفينقيين الاستعمار السياسي للبلاد وإنما السيطرة التجارية، فأقاموا المراكز التجارية على ساحل إفريقية، واتخذوا من قرطاجنة التي أنشأوها عاصمة لهم، فغلب عليهم اسمها وعرفوا بالقرطاجيين، وظلت لقرطاجة السيطرة منذ بداية القرن السادس قبل الميلاد حتى ظهرت روما كقوة فتية ورثت الإغريق في القرن الثالث قبل الميلاد، وبدأت مطامعهم في السيطرة على حوض البحر المتوسط، وارتطمت مصالحهم مع قرطاجة، وكان لابد من الاحتكام إلى السيف فدخلا في صراع طويل عرف في التاريخ بالحروب البونية التي انتهت باندحار وانتحار قائد قرطاجة هانيبال وحل مستعمر مكان آخر وتحولت قرطاجة إلى ولاية منتصف القرن الثاني قبل الميلاد.

ولم تقف مطامع الرومان في الشمال الأفريقي إلى حد الاستيلاء على قرطاجة، وإنما عملوا على بسط نفوذهم تدريجيا على طول ساحل شمالي أفريقيا. وما أن تمت لهم الغاية حتى